الامامة تاريخية سائغة

بعصر ابي بكر الصديق

بقلم الدكتور احمد فريد رفاعي

٣

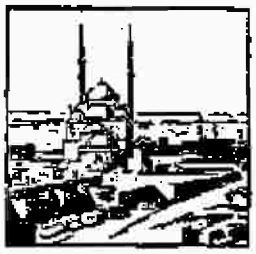

حديث السقيفة طويل . وطويل جداً . وشدّ ما اخشى ملالك وضجرك ، وشدّ ما اخشى الاسهاب والتطويل فلتلزم الايجاز ولو كانت قصة السقيفة رائقة أخّاذة ويهمني ان تقف عليها وأنت ماضٍ في دراسة هذا العصر من صدر الاسلام

يقول الطبري في اخبار السنة الحادية عشرة عن رواته عن ابي هريرة قال: لما توفي رسول الله (صلعم) قام عمر بن الخطاب فقال : إن رجالاً من المنافقين يزعمون ان رسول الله توفي ، وإن رسول الله والله ما مات ، ولكنه ذهب الى ربه ، كما ذهب موسى بن عمران ، فغاب عن قومه اربعين ليلة ثم رجع بعد ان قيل مات ، والله ليرجعن رسول الله فليقطعن ايدي رجال وأرجلهم يزعمون ان رسول الله مات . . . ! قال : وأقبل ابو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر ، وعمر يكلم الناس لا يلتفت الى شيء حتى دخل خليفة رسول الله صلعم في بيت عائشة ، ورسول الله مسجىً في ناحية من البيت .... ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال : على رسلك يا عمر فأنصت فأبى إلا ان يتكلم ، فلما رآه ابو بكر لا ينصت اقبل على الناس ، فلما سمع الناس كلامه ، اقبلوا عليه وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ايها الناس ان من كان يعبد محمداً فانّ محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فانّ الله حيّ لا يموت ... « وما محمد الاّ رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات او قتل إنقلبتم على اعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين » وكان عمر يقول لم يمت ، وكان يتوعد الناس بالقتل في ذلك ، فاجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ليبايعوا سعد بن عبادة ، قال حميد بن عبد الرحمن الحميري : فانطلق ابو بكر وعمر يتقاودان حتى اتوهم ، فأراد عمر ان يتكلم فنهاه ابو بكر ، فقال لا أعصي خليفة النبي (صلعم) في يوم مرتين ، قال فتكلم ابو بكر فلم يترك شيئاً نزل في الأنصار ولا ذكره رسول الله (صلعم) من شأنهم الاّ وذكره ، وقال لقد علمتم ان رسول الله قال لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار وادياً سلكت وادي الانصار ، ولقد

علمت يا سعد ان رسول الله قال وأنت قاعد ، قريشٌ ولاة هذا الأمر ، فبرُّ الناس تبع لبرهم ، وفاجرهم تبع لفاجرهم . قال : فقال سعد : صدقت فنحن الوزراء وأنتم الامراء... قال فقال عمر : ابسط يدك يا ابا بكر فلأبايعك ... فقال ابو بكر بل انت يا عمر ، فأنت اقوى لها مني ، قال ... وكان عمر اشدّ الرجلين ... قال وكان كل واحد منهما يريد صاحبه يفتح يده ، يضرب عليها ، ففتح عمر يد ابي بكر ، وقال : إنَّ لك قوتي مع قوتك . . . قال فبايع الناس ، واستبتوا البيعة ، وتخلف علي والزبير ، واخترط الزبير سيفه ، وقال لا اغمده حتى يبايع علي ، فبلغ ذلك ابا بكر وعمر فقال عمر خذوا سيف الزبير فاضربوا به الحجر ، قال فانطلق اليهم عمر فجاء بهما تعباً وقال : لتبايعان وأنتما طائعان او لتبايعان وأنتما كارهان فبايعا »

هذا هو يا صاحبي خلاصة حديث السقيفة ، ولكن جوهره وله مما تعلمه ولا ريب ، فقد خرجت الامة العربية منه بلا فرقة ولا صدع ، فكلمتها اضحت واحدة ، وجمعها شمولاً ، وخليفتها نافذاً مقبولاً . . ولا غرو فهو مجدد الاسلام وخادمه ، وصديق النبي وصاحبه . . . هو ابو بكر الصديق الفاضل

« ايها الناس ! « قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينوني ، وان اسأت فقوموني . الصدق امانة . والكذب خيانة . والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منهُ الحق . والضعيف فيكم قويٌّ عندي حتى آخذ لهُ الحق ان شاء الله تعالى . لا يدع احد منكم الجهاد فانهُ لا يدعهُ قومٌ الا ضربهم الله بالذل . اطيعوني ما اطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . قوموا الى الصلاة رحمكم الله »

اجل والله فبهذا افتتح سيدنا عبدالله بن أبي قحافة عثمان بن عمر الذي يجتمع مع رسول الله في كل اموره ، في صحبته وفي رسالته ، وفي ايمانه ودعوته ، وفي الكهف والغار ، وفي الحل والاسفار

اجل والله فبهذا افتتح ابو بكر عهد خلافته مقرراً أولى قواعد الحكومة الاسلامية الصحيحة . شارحاً أصدق شرح معنى الرئاسة العامة في الاسلام . رافعاً منارة العدالة والانصاف ، محارباً صروح الظلم والاجحاف . مثقفاً الامة بالثقافة المجدية دون غيرها . . ويكفي أن تقول ان خطاب عرش حكومته شعاره الفاظ اربعة . « الصدق امانة والكذب خيانة »

ولكنها ليست بالكلمات الطويلة العريضة تساس بها الامم وتقاد الشعوب . وانما بالايمان تمكنهُ الصدور وتفيض به القلوب ، وبالاعمال دون الاقوال . وبالامثال الحية ومحاسن الخصال

اجل والله فبهذا افتتح اول خليفة في الاسلام اول عهده بقيادة دولة الاسلام التي دوخت الفرس والروم . لا بعدد ولا بقوة ، ولا بمال ولا بعدة ، وانما بشيء واحد حدثتك عنهُ ولا تزال تذكرهُ بلا ريب . . . بالاخلاص او بالايمان ، وكلاهما صنوان ، وهما توأمان وقد كان من جراء اخلاص ابي بكر ان قبل الامارة ولعلك تذكر قوله : « والله ما كنت حريصاً على

الامارة يوماً ولا ليلة قط، ولا كنت راغباً فيها ولا سألتها الله في سر ولا علانية ولكني أشفقت من الفتنة ومالي في الامارة من راحة... لقد قلدت أمراً عظيماً مالي به من طاقة. ولا يد الا بتقوية الله»

ولعلك لا تزال تدوي في اذنك كلمات « فردريك الاكبر » خالق المانيا الحديثة وصاحب العبقرية الحربية والثقافة الادبية التي شاد بذكرها « كارليل » وانا اعلم حبك لكارليل وهيامك بكتب كارليل . . . . وهي قوله « أثورانا الخادم الاول للمملكة . . . وانا احب لك ان يدوي في اذنك ذلك الشعار المحبوب بيد اني سائلك ان تنظر معي في رفق وأناة . . . ماكان من أبي بكر في بعض نواحيه الخلقية . . . ولست بمحدثك عن فرسان الهزاهز في دولته ولا عن ابطال المعامع في خلافته . . . وانت العليم بمكانة ابي بكر في الجاهلية وان اليه الاشناق وهي الديات والغرم قبل الاسلام، ثم انت العليم بثروته التي كانت اربعين الف درهم والتي انفق منها خمسة وثلاثين الفاً معونةً لرسول الله . ثم انت العليم بانهُ كان يشتري من ماله المعذبين على الاسلام . . . . ثم أنت العليم بما اخرجه ابن جرير عن رواته قال : كان ابو بكر يعتق على الاسلام بمكة ، فكان يعتق عجائز ونساء إذا اسلمن فقال أبوه : أي بني ! أراك تعتق أناساً ضعافاً ، فلو أنك تعتق رجالاً جلداً يقومون معك ، ويمنعونك ، ويدفعون عنك . قال أي أبت أنا ارد ما عند الله . . . ! » وأخيراً أنت العليم بما اخرجه ابن عساكر عن أبي صالح الغفاري قال: ان عمر بن الخطاب كان يتعهد عجوزاً فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه اليها، فأصلح ما أرادت، فجاءها غير مرة كيلا يسبق اليها، فرصده عمر فاذا هو بأبي بكر الذي يأتيها وهو يومئذ خليفة فقال عمر: « أنت هو لعمري . . . . ! »

ولست أدري هل قرأت ما أخرجه الامام احمد في الزهد عن ميمون بن مهران ؟ الى جانب ماقرأته في ابن عساكر من ان جواري الحي كن يذهبن الى الخليفة يضمون ليحلبن لهن ؟ فقد قال : جاء رجل الى ابن بكر فقال « السلام عليك ياخليفة رسول الله . . . قال ابو بكر . . . من ين هؤلاء اجيبن . . . . . ! »

اذكرك بهذه الرواية لالا دل لك على مبلغ ادب الرجل ، ولالأنوه بتواضعه وزهده في الحكم وانما لاني سألفت نظرك للمدد الموفق الى كلكه في نوع من ادبه. وفي منحى اخلاصه قال : « ومن يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد ضل ضلالاً مبينا ، اوصيكم بتقوى الله ، والاعتصام بأمر الله الذي شرع لكم وهداكم به ، فإن جوامع هدى الاسلام بعد كلمة الإخلاص السمع والطاعة لمن ولاه الله امركم ، فان من يطع الله واولي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد افلح وادى الذي عليه من الحق . . . . . واياكم واتباع الهوى فقد أفلح من حفظ من الهوى والطمع والغضب . وإياكم والفخر ، وما فخر

من خلق من تراب ، ثم الى التراب يعود ، ثم يأكلهُ الدود ، ثم هو اليوم حيّ وغداً ميت!

ولتمم نظرك في تروية وأناة في حكمك الخالدة في نهيه عن اتباع الهوى ، والجري وراء الطمع ، وترك الغضب ، واسترسال النفس في الفخر ، ثم خبرني بربك عن مصدر مصائب الامم والافراد ، وعداوة الجماعات وتقاتل الاحزاب !

ولست في حاجة لان أطلب اليك يا رفيقي ان تنظر الى الاشخاص لا الى الاقوال . لست في حاجة الى ان اقول لك إن قائل تلك الحكم هو من قال عنهُ رسول الله : « إن من أمَنّ الناس عليَّ في صحبته وماله ابو بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت ابا بكر خليلاً . . ولكن اخو الاسلام » اجل لست في حاجة الى ان تنظر الى الاشخاص لا الى الاقوال . لاني احب لك ما أحبهُ لنفسي . وشدَّ ما احب لنفسي ان افهم ابا بكر على اساسه المتواضع الجلي في روعة وسناء في قوله : « قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان احسنت فأعينوني وان اسأت فقوّموني » . . . . احب لنفسي ولك ان نفهم معاً ابا بكر على هذا الاساس المتواضع . . . لان العظمة الحقيقية ليست بمنفخة الاوداج ، ولا بشاخة الانف ، ولا مزورة الجناب ، ولا . . . ولا . . . وانما هي بالجوهر واللباب . . . بالتواضع في غير ضعة ، والادب في غير صغار . . . ومع ذلك يا رفيقي فمن حقك على التاريخ وعلى نفسك المحبة للصفة التاريخية ان اثبت لك هنا كلمة لما وصفتهُ به ام المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، لانها فضلاً عن كونها مثلاً صالحاً لمتون النصر وأدب العصر ، فهي شاملة جامعة ، فقد بلغها أن أناساً يتناولون من أبيها فارسلت اليهم فلما حضروا قالت : « أبي وما ابيّه . . . لا تمطوه الابدي ، ذاك والله حصن منيف ، وظل مديد ، أنجح إذ اكديتم ، وسبق إذ ونيتم ، سبق الجواد اذا استوى على الامد . فتى قريش ناشئاً وكهفها كهلا . يريش مملقها ، ويفك عانيها ، ويرأب صدعها ، ويلم شعثها ، حتى حليته قلوبها ، واستشري في دينه ، فما برحت شكيتهُ في ذات الله عز وجل حتى اتخذ بفنائه مسجداً يحيي فيه ما أمات المبطلون . وكان رحمة الله عليه غزير الدمعة . وقيذ الكواجل ، شجي النشيج ، فصفقت عليه نسوان مكة وولدانها يسخرون منهُ ، ويستهزئون به والله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون . واكبرت ذلك رجالات قريش فخنت له قسيها ، ووقت اليه سهامها . فامتلوه غرضاً فما فلوا له صفاة . ولا قصفوا له قناة . ومرَّ على سيمائه . حتى اذا ضرب الدين بجرانه . وأرست اوتاده . ودخل الناس فيه افواجاً من كل فرقة ارسالاً واشتاتاً . اختار الله لرسوله صلعم ما عنده ، فلما قبض رسول الله صلعم ضرب الشيطان رواقه ، وشدَّ طنبه ، ونصب حبائله ، وأجلب بخيله ورجله ، والقى بركه واضطرب حبل الدين والاسلام . ومرج عهده . وماج اهله . وعاد سيرهُ انكاثا وبقي

القوائل . وظن رجال ان قد أكتبت أطماعهم نهزها . ولا حين الذي يرجون . وانا والصديق بين أظهرهم فقام خاسراً مشمراً . قد رفع حاشيتيه . وجمع قطريه . فردّ نشر الدين على غرّه ، ولمّ شعثه بطيه ، وأقام أوده بثقافه . فابذعرّ النفاق بوطأته . واتاش الدين فنعشهُ . فلما أروح الحق على أهله . وأقرّ الرءوس على كواهلها . وحقن الدماء في اهبها . وحضرته مُنيتهُ . فسد ثلمته بشقيقه في المرحمة . ونظيره في السيرة والمعدلة . ذاك ابن الخطاب فقامّ حلت به ، ودرّت عليه ، لقد أوحدت ، ففتح الكفرة ودخّها . وشرّد الشرك شذر مذر ، وبيج الارض ويخها ، فقاءت أكلها ، ولفظت خباها ترأمه ويصدّعها وتصدى له ويأباها . ثم وزع فيأها فيها ، وتركها كما صحبها . فأروني ماذا ترتؤون ؟ واي بوس أبي تفنون ؟ أيوم إقامته اذ عدل فيكم ؟ أم يوم ظعنه إذ نظر لكم ؟ اقول هذا واستغفر الله لي ولكم ...اه »

واظنك تريدني ان احدثك طويلاً في البقية الباقية ، والنواحي الخالدة ، من آثار ذلك العصر ، سواء أكانت سياسية ، او ادبية ، او عمرانية ، وسواء اكانت دينية او حربية ، ولكنك تعلم من اطلاعك الوفير على ما كتبهُ الطبري وابن الاثير وغيرهما في حياة زعيمي العصر ابي بكر وعمر بن الخطاب ان حياتهما تمثلان فلسفة الشدة وفلسفة اللين ، وإن كان جوهر تأديب المسلمين واحداً لم يتغير ، ثم ان اطلاعك على ما كان من اعجاز القرآن وطريقة جمعه وما فيه من عمرانيات ودينيات وبلاغات يجعلك ترجح أن اشتغال الناس به ترك الشعر وما الى الشعر والعلم وما الى العلم في المرتبة الثانية

وإني اعتقد انك تقدر معي ثروة هذا العصر العظيم جداً في القادة والابطال . وتقدر ان كل بطل منهم بحاجة الى الدرس . وكل موقعة من مواقعهم العديدة في الفرس والروم والشام وشتى بلاد العرب فيها عظاتها وفيها دروسها . . . . وأخيراً اعتقد ان الامور التي يناها لك فيما قدمنا من الالمامات الساذجة تستلزم ان ننتقل بك الى حديثنا الاخير

هناك عند «لودي» قال احد ضباط نابليون لقائده : « مستحيل على أية قوة أن تعبر هذا الجسر الضيق وهي لاعالة مستقبلة نيران العدو المهلكة ! »

وهناك عند لودي قال نابليون بونابرت كلمته الخالدة : « تقول ! مستحيل ! لمعجمك ليست هذه الكلمة بفرنسية . . . . معشر الجند هلموا فاتبعوا قائدكم ! »

بمثل هذه العقيدة ، وبمثل هذا الايمان ، وبمثل تلك الارادة ، كان يحارب جند العرب وكان ينجح قادة العرب . . . . واكرر لك باصاحبي لم ينجحوا بعدد ولا قوة وإنما كانت عدتهم وقوتهم ومددهم وذخيرتهم ، في نفوسهم ، ومن نفوسهم ، وفي اخلاقهم ، ومن اخلاقهم ، حتى كانت كلمة مستحيل غير موجودة فعلاً في قاموس تحروبهم ومعجم مواقعهم !

لتنظر ياصاح في حياة اي قائد من قواد ذلك العصر في عشرات المواقع — بل لتنظر في تعليمات الخلفاء لاي قائد من قواد ذلك العصر مهما كانت مكانته من قومه أو صاحب الرسالة نجده يقول له مثل مقالة عمر بن الخطاب لسعد بن ابي وقاص : « يا سعد ابن ام سعد ! لا يغرنك من الله ان يقال خال رسول الله ، وصاحب رسول الله ! فإنَّ الله لا يمحو السيء بالسيء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته ، فالناس في دين الله سواء ، وهم عباده يتفاضلون عنده بالعافية ، ويذكرون ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذي رأيت فيه رسول الله صلعم يلزمه فالزمه »

ولستُ اشك في أنك قد وقفتَ طويلاً عند تلك الكلمات الخالدة . . . . « ليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته » . ولست اشك انك تركت للفكر عنانه ، فذكرت من كلمات صاحب الرسالة يباب الكعبة ثاني يوم الفتح قوله : « يامعشر قريش ! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظيمها بالاباء ، الناس من آدم وآدم من تراب ، « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير » . ولست اشك انك ذكرت ان النبي بعد اعتماره ورجوعه الى المدينة استعمل على مكة « عتاب ابن أسيد » وهو يقيف على العشرين سنة ، غلبه التقشف والزهد وكان أول أمير حج الاسلام وحج المشركين على مشاعرهم . ولست أشك انك ذكرت وفد ثقيف الذي حضر الى الرسول بعد ان اعتنه مالك بن عوف واستباحهم وانهم بعد ان اسلموا أمَّر عليهم الرسول « عثمان بن ابي العاصي » وهو اصغرهم سنًّا ولكنه اكثرهم فقهاً . . . . ولست أشك انك تذكر ان خالد بن الوليد أمر على المسلمين وهم في طراوة الاهاب ، وشرخ الشباب وان اسامة بن زيد ما زلت تذكر امره وأمر عمر بن الخطاب في شأنه وأمر أبي بكر الصديق في تفضيله والاستمساك بقيادته . . . . . لست اشك انك تركت للفكر عنانه عند تلك الكلمات فآمنت بأن الامم لا تحيا الا باعمالها ، والاَّ بإحقاق حق اهلها ، والاَّ بالقضاء على الحسب والنسب إن كانا هما فقط ميزة الرجال ، دون تفاضل الاعمال . . . !

وإني لا احالك ذاكراً ذلك ومقدراً أثره في نجاح العرب في ذلك الصدر الأول إذا ما ذكرت تلك الاسباب الاخرى التي لا اشك في استيعابك طاجماً من نجدة القوم ، واعتقادهم بقضاء الله وقدره ، ولشاظهم ، وخفة أثقالهم ، وخشونة معيشتهم ، وقوة مراسهم حين منازلتهم ، ودربة فرسانهم ، وفروسية غلمانهم ، ورسوخ إيمانهم ، والعمل بقرآنهم . . . مع ما كان عليه جيرانهم من الفرس والروم من تشتت شمل واختلاف كلمة وتناحر احزاب ورفاهية شيوخ وشباب !